مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٣٣/٢٠١٢ هـ.ق، العدد ١٩ (٤) ٣٧-٥٣

خليل مطران بين الشعر التاريخي والنضال السياسي

منصوره زركوب[١]، زهرا سليمانپور[٢]

تاريخ الوصول: ١٤٣٣/٧/٢٠ تاريخ القبول: ١٤٣٣/١١/٢٦

كان الشعر ولايزال يسجل أحداث عصره، كما أنّه مرآة ينعكس فيها بعض الوقائع التاريخية الهامة. فبعض الشعراء ومنهم مطران، قام في شعره بتسجيل الأحداث التاريخية. فنحن في هذه المقالة بصدد دراسة شعر مطران التاريخي والبحث عن آرائه في الصلة بين التاريخ والسياسة. كما تتناول هذه المقالة مواقفه من الجبابرة والأمم المظلومة. وتبين دوره الريادي في قصائده التاريخية، وتحاول الكشف عن الأسلوب الذي اتخذه في إلقاء آرائه. توضّح هذه الدراسة أنّ الشاعر لا ينظر إلى الشعر التاريخي كسجلّ للأحداث، وإنّما يربط فيه بين مواقفه السياسية والتاريخ. فهو يتخذ من التاريخ وسيلة لتقديس الحرية كما يحرّض أمّته على مقاومة الاستبداد والظلم، فيندّد بالأمم التي انحنت لجبابرتها بالاستكانة والخضوع لهم. ويشيد أيضا بالأمم التي قاومت الظلم ولم تكتف بالرجاء والدعاء في سبيل الحرية والاستقلال. إنه يتخذ مادة شعره التاريخي من تاريخ مصر قديمها وجديدها، ثم لا يكتفي به وإنّما يتخذها من تاريخ الأمم الأخرى كالفرس والروم لأنّه يعتقد بأنّ هناك صلة أو تشابهاً بين الأمم ألا وهي الانتقام من الجبابرة. إنّ مطران قد بقي رائداً للتجديد في شعره التاريخي مستخدماً الأسلوب القصصي واللهجة الساخرة كما حاول خلق اللوحات التصويرية؛ ذلك بهدف التأثير النافذ في القارئ وإيجاد الصلة بين الأمم المختلفة باختلاف زمانها ومكانها.

الكلمات الرئيسية: خليل مطران، الشعر، التاريخ، السياسة، التجديد

---

١. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية بجامعة إصفهان، zarkoobm@yahoo.com

٢. طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية بجامعة إصفهان، soleymanpoor@ yahoo.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

المقدمة

شهدت مصر في القرن العشرين تحولات في النظم السياسية والاجتماعية التي سببت تحولات في الأدب، وقد كان مطران رائداً من رواد التجديد في الأدب العربي آنذاك؛ والشاعر الذي يحمل رسالة التجديد، يجب أن يساهم في هذه الحركات الاجتماعية ويقودها. مطران لم يعش خارج هذه الأحداث وإنّما كان آنذاك شاباً مناضلاً ضد الحكومة الجائرة للسلطان عبد الحميد مما تسبّب في اغتيال فاشل له من جانب الحكومة ثم نفيه من موطنه لبنان. بقيت روح النضال ضد الظلم قائمة فيه، فاتخذ من الشعر والتاريخ وسيلة لتحريض الأمة ضد الظلم. وذلك بتعظيم تاريخ هذه الأمة أحياناً وإجلاله ليبعث في الأمة روح الشجاعة، وحيناً آخر بالإقرار بوجود ترابط معنوي بين الأمم.

وهذا السبب هو الذي دعانا لدراسة العلاقة بين الشعر السياسي والشعر التاريخي لمطران، ونعني بالشعر السياسي، الشعر الذي يلتفت فيه الشاعر إلى القضايا السياسية في عصره فيعالج آلام شعبه فيما يرتبط بهذا الموضوع بحماسة فتتدفق من شعره عواطف متناحرة في سبيل الحرية والاحتفاظ بالقيم الإنسانية. ونعني من الشعر التاريخي ما يعود فيه الشاعر إلى التاريخ فيتخذ مادة شعره منه ليوظفه في خدمة أهدافه.

والجدير بالذكر أنّ هناك عدداً غير قليل من النقاد اهتموا بشعر مطران ودرسوا شعره في كتبهم النقدية منهم: أحمد درويش، في كتابه: خليل مطران المسيرة والإبداع، الرمادي في كتابه: خليل مطران شاعر الأقطار العربية، عشقوتي في كتابه: خليل مطران شاعر القطرين والغيث في كتابها: خليل مطران في مرآة النقد الأدبي.

فمن درس من الناقدين شعر مطران وأفكاره، لابدّ أن يدرس قصائده التي ترتبط بهذا الموضوع لكنها لم توجد – على حسب اطلاعنا– دراسة مستقلة خاصة بدور التاريخ في شعره. لكنها أُعدت بعض الأطروحات حول مطران مثل: «بررسی شعر رومانتیك خلیل مطران» للطالبة سارا خنشا، «نقش خلیل مطران در طرح وتحول مکتب رومانتیك عربي» للطالب حسین اختر سیمین، «خلیل مطران واشعار داستانی – تصویری» للطالبة فاطمة دهقانی احمدآبادی و«خلیل مطران خاتم مکتب کلاسیك، فاتح مکتب رومانتیك» للطالبة بتول حسنعلی محمدی. كما عالجت سليمان پور شعر مطران ضمن رسالتها في الماجستير تحت عنوان «خليل مطران شرح احوال وبررسي آثار» كما أعدّت مقالة كتبها فيروز حريرچي ومجتبى محمدى باسم «مظاهر رومانتيك در اشعار خليل مطران» ولكن أكثر هذه الدراسات تنظر نظرة عامة إلى الشاعر، فلاتعالج موضوع التاريخ وعلاقته بالشعر السياسي في شعره كدراسة مستقلة ومستوفيـــة. لذا فهذه المقالة تحاول تسليط الضوء على هذه الزاوية من شعره والإجابة عن الأسئلة التالية:

–ما هي الصلة بين السياسة والتاريخ من وجهة نظر مطران؟

–إلام يرجع ظلم الظالمين واجتراءهم في التعدي والطغيان في رأي مطران؟

–بم يتميز شعر مطران التاريخي؟

–ما هو دوره الريادي في التجديد في قصائده التاريخية؟

١– فكرة مطران السياسية

مارس مطران النضال السياسي والوقوف وجهاً لوجه أمام جبابرة عصره منذ الشباب، فاتّصل بأحرار بلاده و وقف في وجه السلطان عبدالحميد.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

«كانت نفسه أشربت حب الحرية، فأخذ يتغنى بشعره ضد الاستعمار العثماني الذي كان يحكم وطنه حكماً ظالماً، وكان يخرج مع بعض رفاقه إلى مشارف بيروت....ينفّسون بما فيه حب للحرية عن أمانيهم القومية» (عويضة،١٩٩٤، ص٧).

لقد استمرّ في مناضلاته ضد السلطان العثماني وأنشد في هذه الفترة شعراً ثورياً ضد الحكومة فلمّا ذاع خبر هذا الشعر أُجبر على امحاءه، ولكنّه لم يبق صامتاً حتى ضاق الذرع بالحكومة فأمرت باغتياله، وفي ليلة من الليالي أطلق عمال السلطان النار على فراشه ظانين أنّه فيه (انظر: عطوي، ١٨٩٨، ص ٤٠-٤١ و الرمادي، لا تا، ص ١٩).

وإثر هذه الحادثة خشيت أسرة مطران عليه ورأت أن يهجر بلده لبنان –مولده– ويهاجر إلى فرنسا. فأقام بها لمدة سنتين و لم تخل حياته هناك من الاتّصال بالثوريين الفرنسيين. (حجازي، ١٩٧٥، ص ١٤، ١٥)

اتصل في فرنسا بجمعية تركيا الفتاة، واستمرّ بذلك في مناضلاته ضد استبداد عبدالحميد، فضيّقت الحكومة الخناق عليه، فاتّجه إلى مصر حيث وجدها منتجع الأحرار.

كل هذه الحوادث أثّرت في حياة مطران وجعلت شعره ينبعث عن روح الحماسة والشجاعة وعدم تحمل الظالمين، ونرى هذه الروح مهيمنةً على قسم كبير من شعره. والابتعاد عن الوطن لم يُخمد هذه الروح وإنّما نرى لمعات منها بين الحين والحين، فلمّا تسلّط قانون المطبوعات على الأفكار قال قصيدته المشهورة بعنوان "المقاطعة":

شَرِّدوا أَخيارَها بَحراً وَ بَرّا

و اقتُلُوا أَحرارَها حُرّاً فَحُرّا

...

كَسِّروا الأقلامَ هل تكسيرُها

يَمنَعُ الأيدىَ أن تنقُشَ صَخرا؟

...

أخمِدوا الأنفاسَ، هذا جُهدُكم

و به مَنجاتُنا منكم ... فشُكرا!

...

(مطران، ١٩٧٧،ج ٢: ص١٤٠)

يرى مطران أنّ للقلم رسالة كبيرة، ويراه كسيف حادّ في يد أهله، ويرى على نفسه أن لا يحتبسه عند الظلم، لأنّ القلم يفعل ما لا يقدر عليه السيف. السيف يُميت والقلم يُحيي، فبإمكان القلم أن يُحيي حتى العظام البالية:

فيمَ احتباسُكَ لِلقَلَمْ

وَالأَرْضُ قَدْ خُضِبَت بِدَمْ؟

سَدِّدْ قَويمَ سِنـــــانهِ

في قَـــــلْبِ مَنْ لا يَسْتَقِمْ

نَبِّهْ بِهِ أُمَمَ الـــــزَّوا

لِ فَعَلَّهُ يُحْيِى الـــــرِّمَمْ[1]

.....

بَينَ الّذينَ يُقاتِلـــوا

نَ وَبَيْنَنا قُـــــرْبَى النِّقَمْ

من يَسْتَبِحْهُ عَدُوُّنـــا

فَـــــلَهُ بِنا صِلَةُ الرَّحِمْ

(م.ن، ج٣، ص ١٦٠)

يتخذ مطران من الشعر التاريخي وسيلة لتحريض الناس على التصدي للجبابرة، فهو لا يرى الشعر منفكاً عن الحياة وعن قضايا المجتمع، لأنّ قلبه ينبض من أجل كل مظلوم في العالم، فيعالج القضايا الاجتماعية في شعره كما يعالج القضايا السياسية.

«شعرُ مطران شديد الصلة بالحياة وبالناس، فهو نصير المظلومين والضعفاء. وعاطفته المتأججة بالنبل تنحني من الأسى لسقوط الخير تحت مخالب الواقع والحتمية المستبدة،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

فهو في معظم قصصه الاجتماعية يراوده حلم كبير جسّده في أبطاله، فقدّس الحرية وأشاد بالبطولة والفضيلة والوفاء مقرّعاً بالظالمين وبأبناء الفساد والرذيلة» (عشقوتي، ١٩٩١، ص ٦٦).

لا ينبعث شعره السياسي إلا عن روحه الثورية، فلا يطلب منه مالاً ولا شهرة وإنّما يعرض نفسه في معرض الخطر ليؤدي واجبه الإنساني تجاه إخوانه من بني البشر، و«ظل حب الحرية سارياً في دمه، كما ظل كره الاستبداد شديداً في نفسه، فكان همه نشر هذا الحب، وهذا الكره أيضاً في النفوس لا كشاعر ذا أغراض سياسية، بل كشاعر إنساني غايته أن يوجه مواطنيه نحو الحياة المثلى» (المقدسي، ١٩٧١، ص١٢٥).

فشعر مطران التاريخي لا ينفصل عن شعره السياسي، فقد نشأ عن فكرته السياسية وليس إلّا امتداداً وتوسيعاً وتعميقاً لمواقفه عن الجبابرة.

٢- ثقافة مطران في التاريخ وأثرها في شعره

لمطران ثقافة عميقة في التاريخ ولايعتني به كمادة تعليمية لاطّلاع الأجيال على التاريخ، وإنّما يعتبره موضوعاً لأشعاره ليكون درساً للإنسان في أيّ مكان وزمان. فكما تعمقت ثقافته في الأدب بقراءة أشعار من سبقوه من شعرهم الجيد والاعتماد على ينابيع اللغة والأدب وحفظ صلة لغته الحديثة بالتراث، تعمقت ثقافته في التاريخ ليعتمد عليه في مادته الشعرية.

يقول عبدالقادر القط حول ثقافة مطران واستخدامه هدف التجديد والدفاع عن المظلومين: «الجديد في حرب مطران هذه، إنّما هو تلك «الأسلحة» التي اعتمدها في بلوغ هدفه، واستخدمها في «تجنده». وهي عبر التاريخ القديم والحديث ، وانتقاء التفاصيل، والتركيز على أحداث مجهولة من عامة قرّاء العرب... أي أنّه وضع ثقافته الواسعة – التاريخية واللغوية والأدبيه والاجتماعية- في خدمة الحرية، ومقاومة الاستبداد، وهي ثقافة لم تتيسر لأحد من معاصريه، ومن الشعراء خاصة» (نقلا عن: الغيث، ٢٠١٠، ص ١٩٤).

إنّه يعتبر التاريخ أمّاً للأمم. ينبغي لها أن لا تنفصل عنه وتجعله معتمدها ومتكّأها. فحكّام الجور عندما يريدون السيطرة الكاملة على أمّة، يسعون في محو تاريخها وانفصالها عنه، لأنّ الأمة المنفصلة عن أصلها وعن تاريخها لاتتكئ على شيء وتعيش في الجوفاء. فهو ينظر إلى التاريخ بمثابة ما يربي الأفكار ويهيئ الأجيال للمستقبل. يقول مطران في مقدمة ترجمة لقصة فرنسية إلى العربية باسم "قصة وردة" وهي قصة تاريخ مصر، نشرها مطران في مجلته، المجلة المصرية: «وإنّه لمن الأمور الثابتة بالاختبار أنّ الأمة التي لا تعرف ماضيها لا تدرك حاضرها ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها» (أبوشوارب، ٢٠١٠، ص ٢٤٣).

أيّ أمة ليس لها تاريخ عريق تتكئ عليه تخلو من أي اعتراض، فلا يصعب على المستبد السيطرة عليها.

في قصيدة «السور الكبير» في الصين نرى الملك وهو يمنّي بأمةً مخمورة من الذلّ، أمة لايغضبهم ظلم، ويهدف إلى محو تاريخ الأمة ليحقّق أمانيه:

إنّي مُنِيتُ بِأمّةٍ مَخْمورَةٍ
مِنْ ذُلِّها، وَلَهَا القَناعَةُ مَشْرَبُ
لا ظُلمَ يُغْضِبُهم وَلَوْ أَوْدَى[٢] بِهِم
أَتَعِزُّ شَأناً أمّةً لا تَغضِبُ

...

وَلأمحُوَنَّ رُسُومَ أَسْلافي بِها
فَيَبِيتُ ماضِي "الصّينِ" وَهْوَ مُحَجَّبُ
وَيظَنُّ عَهْدِي بَدْءَ عَهْدِ وُجودِها
فَيَتِمُّ لِي الفَخْرُ الَّذي أَتَطَلَّبُ

(مطران،١٩٧٧، ج ١، ص ١٣٤، ١٣٣)

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

ويتكلم مطران على لسان شاعر هذا الملك، فيحاول تحذيره عن محو تاريخ هذه الأمّة مستدلاً أنّ التاريخ في الأمم كالنحت في الصخر لا يمكن إزالته ومن يسعى في هذا الطريق لايجني غير النّدامة والملامة:

فَعَلامَ أنتَ تُزيلُ ذِكرَ مُلوكِها
وَأولئك العُظَماءُ مَوتَى غُيَّبُ
إن تَمْحُ مِن أَسْفارِهِم أَخْبارَهُم
فالصَّخرُ يُنحَتُ وَالمَناحِتُ تُكتَبُ
وَلَيعلَمَنَّ النّاسُ بَعدَك أمرَهم
فتُلامُ ما طالَ المَدَى وَتُؤَنَّبُ

(م.ن، ص ١٣٤)

لايختلف موقف مطران في شعره التاريخي عن موقفه في شعره السياسي الصارخ ضد الظلم. وهو في هذا الموقف ينبعث عن نفس يؤلمها الظلم والاستبداد فاتخذ من شعره وسيلة للتعبير عن شكوى نفسه. فيقول: «الشكوى هي صرخة النفس المعذبة، وصرخة الفكر الراغب في الإصلاح. وقد شكوت أنا في قصائدي كثيراً، فليس من قصيدة كتبتها إلا وفيها تنديد بالظلم الاجتماعي وتطلّع إلى المساواة والحرية والعدل» (جحا، ١٩٩٥، ص ١٤٦).

٣- شمولية مادة شعر مطران التاريخي

إنّه يتخذ من التاريخ مادة لإثبات فلسفته، نعم له فلسفة في الشعر السياسي والشعر التاريخي، وفلسفته تبتني على معارضة الظلم أينما كان فلا يتفاوت عنده أهو في الشرق أم في الغرب. فكل أبناء البشر إخوته، وكل ظلم يعتريهم كأنّه اعتراه، فليس الدم صلة بين بني البشر، وإنّما الانتقام من كل جائر هو الذي يعتبر صلة بينهم، وهو أقرب من صلة الرحم:

بَيْـــنَ الّذيـــنَ يُقاتـــلو نَ وَبَيـــنَنا صِلَةُ الرَّحِـــمْ

(م.ن، ج٣،ص ١٦)

وهذه الفلسفة تجعله يتخذ مادة شعره تارة من تاريخ الفرس وتارة من تاريخ الروم وتارة من تاريخ العرب. ويأخذها كمادة للإعتبار لا للفخر، إنّه يعتبر من تاريخ الفرس كما يعتبر من تاريخ العرب، فهو يعمل بمصداق ﴿قد خلَت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين﴾ (آل عمران: ١٣٧)

ولا يتفاوت عنده أنّ هذا التاريخ لأية أمة كان وفي أيّ زمان، فمحاربة الظلم والجور هو وجه التقريب بين الأمم.

و«يمكننا أن نقول أنّ الشعر العربي، على مدى تاريخه الطويل لم يجعل بصفة عامة التاريخ ينبوعاً للاستلهام الشعري كما رأينا في قصائد مطران. فمطران من هذه الوجهة يعد شاعراً مجدداً ورائداً في هذا المجال. ومن المؤكد أن الشعر العربي قد اتخذ من قبل التاريخ موضوعاً له، ولكنه كان دائماً التاريخ المحلي أو القبلي الذي تستحضره القصائد... وأحياناً يستحضر التاريخ في الأشعار القومية التي تتغنى بانتصارات الماضي أو تبكي مماليك الإسلام البائدة» (درويش، ٢٠١٠، ص ٢٠٣).

إنّ مطران لا يكرّر ما قيل من أنّ الآثار الباقية وسيـــلة للاعتبار وأنّها تدلّ على الزّوال وما إلى ذلك. إنّه ينظر بمنظار آخر وهذا هو الذي خلّده. نراه يقول في قصيدته الخالدة «الأهرام» وهي صرخة ضد الظلم:

شادَ فأَعلَى، وَبَنَى فَوَطَّدَا
لا لِلعُلَى وَلا لَهُ بَلْ لِلعِدا
مُستَعبِـــدٌ أُمَّتَـــهُ فـــي يَومِـــهِ
مُستَعبِدٌ بَنيهِ لِلعادي غَـــدَا
صُفْرَ الوُجوهِ نادِياً جِبَاهُهُمْ
كَالْكَلَأِ اليابِسِ يَعْلُوهُ النّدَى[٣]
مَحْنِيَّةً ظُهُورُهُمْ، خُرْسَ الخُطَى
كالنَّمْلِ دَبَّ مُسْتَكيناً مُخْلِدَا

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

مُجتَمِعينَ أَبْحُراً مُنْفَرِعينَ
أَنْهُراً، مُنْحَدِرينَ صُعَّدَا
أُكُلُّ هَذِى الأَنْفُسِ الهَلْكَى غَداً
تَبْنِى لِفانٍ جَدَثاً مُخَلَّدا؟
(مطران، ج ١، ص ٤٦٠)

وهو يصرخ بصوت عال ضد هؤلاء الظالمين بأنّ هذه الصروح والقبور لا تخلدكم، وأنّ الذكر الجميل هو الذي يبقى، وأنّ هؤلاء المظلومين سوف ينهضون ويثورون عليكم ويدوسون رؤوسكم، والأجساد التي كنتم تسعون في خلودها بتوسيع القبور لها – ظنّاً منكم أنّ القبور حرزٌ لأجسادكم – سوف يعرضون في مشهد عام:

يا أَيُّهَا المَوْتَى أَلَمْ يُسْمِعْكُمُ
صَوْتَ المُنادِى صادِعاً مُرَدَّدَا؟
قُومُوا انْظُرُوا السُّوقَةَ فيمَا حَولَكُمْ
تَدُوسُ هَامَاتِ المُلوك هُمَّدَا
قُومُوا انْظُروا العَدُوَّ فِي ديارِكُم
يَحْكُمُ فيها مُستَبِدّاً أَيِّدَا
قُومُوا انْظُروا أجْسادَكُم مَعْروضَةً
في مَشهَدٍ لِمَنْ يَرومُ المَشْهَدَا
بَعْثٌ بِهِ يَسأَلُكُم حسابَ ما
قَدَّمْتُمُ مَنْ راحَ مِنّا و اغْتَدَى
لَمْ يُغْنِكُمْ مِنْهُ البِناءُ عالياً
وَ الأَرْضُ نَهْباً و المُلوك أَعْبُدا
وَكانَ يُغْنيكُمْ جَميلَ الذِّكْرِ لَوْ
خَفَضْتُمُ اللَّحْدَ وَ شِدْتُمْ بِالهُدَى
أَخْطَأَ مَنْ تَوَهَّمَ القَبْرَ لَهُ
حِرزاً يَقيهِ بِالرَّدَى مِنَ الرَّدَى
(م.ن، ج ١،ص ٤٦٠)

وفي قصيدته الأخرى «في ظلّ تمثال رعمسيس»[٤] يؤكد على هذا الأمر بشكل أوضح وأجلى، فينسب مجد هذا الفرعون إلى الصانعين الحقيقيين لهذا المجد، من الشجعان الذين أبلوا في الحروب بلاءً حسناً ولكن سُجل النصر في التاريخ لرعمسيس فلم يبق ذكرهم وبقى المجد له:

مخلَّدَ المَجدِ دونَ القائمينَ بِهِ
مِن شُوسِ حَربٍ وصُنّاعٍ وأَعوانِ[٥]
مُخالِساً ذِمَّةَ العَلياءِ [٦] مُضْطَجِعاً
مِن مَهدِ عِصمَتِها في مَضجَعِ الزّاني
بحيثُ آبَ وَكلُّ الفخرِ حِصَّتُهُ
وَلم يَؤُبْ غيرُه إلّا بِحرمانِ
كَم راحَ جمعٌ فِدَى فردٍ وكَم بُذِلَتْ
في مُشتَرى سَيِّدٍ أرواحُ عُبدانِ
لِموقِعِ الأمرِ فيهم كلُّ تَكرِمةٍ
وَمُنفِذِ الأمرِ فيهم كلُّ نِسيانِ
(م.ن، ج٣، ص ٤٢١)

ولم يفُته ذكر مجد رعمسيس، فهو ككلّ عربي بل ككلّ إنسان عندما يقف أمام هذا التمثال الذي يدلّ على المجد الذي بنى لمصر تأخذه الهيبة والرهبة ويشيد به:

يا صورةً شبّهتْ صَخراً بإنسانِ
في رَوعَةٍ مَلأَتْ قَلبي وإنساني
لا وَجهَ أَبهَى و لا أَزهَى بِرَونَقِهِ
مِن وَجهِكَ النَّضرِ في مَنحُوتِ صَوّانِ
مَنِ المَليكُ الّذي تَثنى جَلالَتُهُ
عَنهُ، ويَمضِي فَما يَثنِيهِ مِن ثانِ؟
(م.ن، ص ٤١٨)

ثم يستمرّ في تعظيم التمثال وإجلاله لبقائه على مرّ الدهور فبقائه حيّا قائماً يريب الناظر و يوحي له بأنّ صاحبه خالد، والذي يزيل هذا الريب هو أنّ تماثيله الأخرى قد حُطّمت. ثمّ

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

يشير إلى حروبه الظافرة التي سجّلت لمصر عظمة خالدة ويشير إلى الحضارة التي صنعها لمصر.

٤- دور الأمم في بناء التاريخ عند مطران

لمطران فلسفة أخرى في شعره التاريخي نشأت عن فلسفته السائدة على شعره السياسي، وهي أنّ الأمم هي المسؤولة الوحيدة عمّا يفعل حكّامها: إنّه يلقي مسؤولية كل ما يُفعَل بحق الشعب على عاتق الشعب نفسه ويعتقد أنّ الجهل والقناعة والرضا والسكوت أمام الجبابرة يدعوهم إلى ظلم أكثر ويحرّضهم على إذلال الرعية، فالشعب يصنع الجبابرة بتأييدهم والأمّة هي التي يجب أن تُلام على الظلم الّذي تعانيه لا الحاكم الجائر:

مَن يَلُمْ نَيرونَ إنّي لائِمٌ
أمّةً لَوْ كَهَرَتْهُ ارتَدَّ كَهْرا [٧]

(م.ن، ج٢،ص ١٢٤)

والتأييد للجبابرة نابع عن جهل الأمة، فالخمول والقناعة هما السببان الرئيسان في بقاء الظالمين على ظلمهم:

إنّي مُنيتُ بأُمَّةٍ مَخمورَةٍ
مِن ذُلِّها وَلَهَا القَناعَةُ مَشرَبُ

(م.ن، ج١، ص١٣٣)

ولكن الظلم لايبقى والظالم يفنى ولوكان في برج مشيد ويُحمَى بأشدّ الجدران استحكاماً وبأكثر الحجار تلاحماً. فهذا جدار الصين التحم بالحجارة وبآلاف من أجساد الشعب المظلوم، فهل يُحمي بانيه من الهلاك؟

مطران في قصيدته "السور الكبير في الصين" يتحدث على لسان شاعر الملك الذي يتقلّب على سريره الذهبي وهو يمنّى أن يرفع جداراً كالأرض لايفنى ولا يتخرّب، فينصحه الشاعر ويحذّره بأن الجدار سوف ينهدم. وما أصدق ما تبصّر مطران في خراب جدار الصين.

أمّا الجِدارَ فَلَو رَفَعتَ بِناءَهُ
حَتّى استَقَرَّ علَى ذُراهُ الكَوكَبُ
وَلَوِ الجِبالُ جُعِلنَ بَعضَ حِجارِهِ
وَلُحِمنَ حتَّى الماءُ لا يَتَسَرَّبُ
فَلَيُحدِثَنَّ النّاسُ ما هُوَ فَوقَهُ
عِظَماً وَإتقاناً وَما هُوَ أَغرَبُ
.....
وَلَتَنفُذَنَّ إلى «بَكينَ» خَلائِقٌ
بَيضاءُ تَغنَمُ ما تَشاءُ وَتَنهَبُ

(م.ن، ج١، ص١٣٥)

أمّا قلوب الشجعان فهي التي بإمكانها الدفاع عن الوطن، والفضيلة هي التي تحمي الأوطان عن الخراب، والملك الذي يبني دعائم عرشه في قلوب شعبه يمكن أن يطمئنّ باله في دوام مُلكه و وطنه:

ماذا يُفيدُ السّورُ حَولَ دِيارِهِم
وَقُلوبُهُم فيها ضِعافٌ هُرَّبُ
...
لا يَعصِمُ الأُممَ الضَّعيفةَ فِطرةً
إلّا فَضائلُ بالتّجارِبِ تُكسَبُ
فَتَكونُ حائطَها المَنيعَ عَلَى العِدَى
وَتكونُ قُوّتَها الّتي لا تُغلَبُ

(م.ن، ص١٣٥)

هذا موقف مطران أمام السور التاريخي في الصين حيث صاغ مواقفه في صيغ خيالية عن هذا الجدار حول ظلم الجبابرة والقلوب التي تستطيع مواجهته.

وفي قصيدته تحت عنوان ١٨٠٦- ١٨٧٢ يشرح بأس الألمان وشجاعتهم أمام المعتدي (نابليون الأول) حيث دخل بجيشه ألمانيا ودخل برلين، فأبلى الألمان بلاء حسناً في الدفاع عن وطنهم، ولهذه الحرب استناد تاريخي يؤيد

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

حقيقتها (انظر: فوگل، ١٣٨٠، ص ٨٩٦، ١٠١٠، ١٠١١). فتهاجموا تهاجم الآساد، يُلقَى الرجال على الثرى مخضبين بدمائهم، و لم يكد فارس يهوي من فرسه حتى يدعو الفرس بصهيله فارساً آخر إذا احتاج إلى فرس ليركبه ويغزو، فكان القتلى كثيرين و لم تستقبل الألمانُ المعتديَ إلّا بحائط مرصوص من الأجساد.

حتَّى إذا كَمَل العَتادُ[٨] تَقاذَفُوا
بِالنّارِ ذاتِ البَرقِ وَالإرعادِ
شُهُبٌ ضِخامٌ آتياتٌ والرَّدَى
بِمَسيرِهِنَّ ومثلُهُنَّ غَوادِ[٩]
تُلقَى الرِّجالُ علَى الثَّرَى قَتلَى كَما
يُلقِي السَّنابِلَ مِنجَلُ الحَصّادِ
للهِ دَرُّهُمُ وَقَد حَمِيَ الوَغَى
فَتَهاجَمُوا كَتَهاجُمِ الآسادِ
تَدعُو الجَراحَةُ أُختَها بِصُدورِهِم
وَالسَّيفُ يَتلُو السَّيفَ في الأجيادِ
وَإذا التَقَى بَطَلانِ لم يَتَجَندَلا
إلّا معاً مِن شِدَّةِ الأَحقادِ
وَإذا جَوادٌ خَرَّ فارِسُهُ دَعَا
بِصَهيلِهِ ذا حاجَةٍ بِجَوادِ
(مطران، ج١، ص٣٤٤)

لكنّ الفرنسيين عزموا على الفتح فاستفتحوا برلين المنيعة. وبقي الحال هكذا إلى انتصار فرنسا والهيمنة على برلين ولكن الشعب لم ينس غضبه على الفرنسيين، فلا سبيل لهم إلّا الصبر، فلم يصبروا راضين قانعين، وإنّما صبروا والغيظ في أكبادهم، وقد عبّر الشاعر عن ذلك بأنّهم استعصموا بالصبر، وتدلّ هذه الكلمة على مدى اعتقاد ذلك الشعب الشجاع بالصبر، فهو يستعصم به ليستغلّه للنجاح في الوقت المناسب له، فيكظم الغيظ في قلبه ويتأهّب للثأر، فهم أحرار لايحيون الاعتداء على أحد. وقد استشهد كثير منهم في الدفاع عن الوطن:

يا خَجلَةَ الأحرارِ مِن موتاهُمُ
يَثوُونَ حَيثُ المالِكونَ أَعادِي
فاستَعصَموا بالصَّبرِ، ثمّ تَكاتَفُوا
وَتَحرَّرُوا مِن رِقِّ الاستِعبادِ
وَتَأَهَّبُوا لِلثَّأرِ وَالأَحقادُ في
أَكبادِهِم كَالبِيضِ في الأَغمادِ
حتَّى إذا اشتَدّوا وَضاقَ عَدُوُّهُم
ذَرْعاً بِهِم أَصلُوهُ حَربَ جِهادِ
(م.ن، ص٣٤٥)

فإذا حان الموعد وآن الأوان، قاصّ فشله ونجح نجاحاً باهراً إذ دخل باريس فاتحاً.

وفي النهاية يلقي الشاعر الدرس الذي هيّأ له الطريق بهذه القصة فيلخّص ما أراد أن يقول للأمم الشرقية في بيتٍ:

كُلٌّ بِمَسعاهُ يَفوزُ وَمَن يُنِبْ
عَنهُ الحَوادثَ لم يفُزْ بِمُرادِ
(م.ن، ص٢٦٥)

هذا التكريم والإعظام للشعب الذي لايخضع أمام ظلم المعتدي نراه في قصيدة قصصية أخرى لمطران، وهي «فتاة الجبل الأسود». فهو في هذه القصيدة يقصّ علينا قصة أمّة الجبل الأسود التي احتلّت بلادها الحكومة التركية فطغت عليها برجالها ونسائها وشبابها وشيوخها. فمثل هذه الأمّة لاتحتفظ بكرامتها و وطنها فحسب بل تُعلّم المعتدي أنّ يكفّ الأيدي عن صراعها:

أَنُهلِكُ شَعباً غَزَت دارَهُ
ثِقالُ الجُيوشِ فَلَم يَخْلُدِ
خَليقٌ بِنا أن نَرُدَّ القِلَى
وِداداً وَمَن يصطنع يَوْدَدِ

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

فَما بَلَدٌ تَفتَديهِ النِّسا
ءُ كَهذا الفِداءِ بِمُستَعبَدِ
(م.ن،ج١، ص٤٦٥)

في القصائد التاريخية يعود مطران إلى التاريخ ليتخذ أبطال قصصه منه، فيتكلم معهم ويتكلم عنهم، ويصف في قصصه المظالم التي جرت على الشعوب ويصرخ في وجه الظالمين. ولكنّه في الوقت نفسه يسدّد سهمه الأقوى إلى الشعوب ليجعل مسؤولية هذه المظالم على عاتقه دون أن يخفض من شأنها.

٥- دور مطران الريادي في التجديد في شعره التاريخي

لايمكن انفصال الشعر التاريخي لمطران عن شيئين: الأول: الشعر القصصي، فأشعار مطران القصصية تتناول موضوعات مختلفة، منها ما يرتبط بالحبّ والمرأة في حياة مطران، ومنها الموضوعات الاجتماعية، ومنها الموضوعات التاريخية. فكثير من شعر مطران التاريخي جاء في سياق السرد، صاغه في قالب القصّة مثل «فتاة الجبل الأسود» وقصيدة «بزرجمهر» وقصيدة «نيرون». فقد جاء بعضه في سياق النداء ومخاطبة ما يدلّ على تاريخ مصر والفراعنة كالقصيدتين «في ظل تمثال رعمسيس» و «الأهرام». أما الثاني وهو السياسة كما أسلفنا. فدور مطران الريادي في هذا النوع من الشعر يظهر في تجديده في امتزاج الشعر التاريخي والقصصي كما يظهر في وضع العنوان على قصائده، وهذا الأمر لم يكن مألوفاً قبله (انظر: الموسى،٢٠٠٠، ص ٢٨).

وضع العنوان في القصيدة ينبع طبعا عن سمة أخرى للتجديد أكثر منها جذرياً وهي الوحدة العضوية فيها، فالعنوان يدلّ على الروح المسيطرة على القصيدة، والرسالة العامة التي تحتويها. فقد نُفث فيها روح عامة من أولها إلى آخرها، فلا تكاد انفكاك بين بيت منها وآخر.

أما التجديد في شعر مطران التاريخي فلا ينحصر في الامتزاج بين الشعر القصصي والتاريخي، و إنما يظهر في اتخاذ أساليب في هذا النوع من الشعر، منها اللهجة الساخرة، كما يظهر في خلق اللوحات البديعة لتصوير الوقائع التاريخية:

الف) اللهجة الساخرة

كان مطران شاعر الأخلاق، فهو إنسان متّزن لم يهجُ أبداً، ولكن هناك صور ساخرة نرى في شعره، وليست السخرية في شعره مقصوداً بها الخفض من شأن أحد ولا التفكه والمداعبة. فقد استخدم هذا اللون وسيلة للتأثير العميق، إذ جاءت السخرية في شعره لاذعة.

«والغريب العجيب أن يستخدم الخليل هذه الآليات في شعره، وهي سلاح هجومي هجائي ساخر، ولذلك لا أثر لهذه الآليات في شعره الذاتي الغنائي، ولكنه استخدمها في شعره الموضوعي، ولا سيما شعره التاريخي في الحرية، وهو يصف المستبدين الذين لا يجدون مقاومة من شعوبهم» (الموسى، ٢٠١٠، ص١٥٤).

فهو يسخر تارة من الظالم المستبد، وأخرى يسخر من الشعب الذي اتخذ الصمت وسيلة ليعيش عيشة أمن تخرجه من إنسانيته وفتوّته الإنسانية، وتقربه من النعاج التي أَولَت اختيارها التام إلى راعيها لتعيش آمنة من الأهوال والفتن، فللوصول إلى الأمن خلع نفسه من التفكر والاختيار:

يا أُمّةَ الفُرسِ العَريقةَ في العُلَى
ماذا أحالَ بِكِ الأُسودَ سِخالا[١٠]؟
(مطران، ج٢، ص٤٨٦)

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

يسخر الشاعرمن هذه الأمة التي تأتي رغماً عنها لتشهد قتل المصلح الذي أحيا البلاد وملأها عدالة ونوالاً، فتخفي في صدورها الكظم والغيظ، وتبدي السرور والفرح في حين يدمى قلبها من شدّة الحزن. لكنّ مثل هذه الأمة لا تصح برائتها وإنّما تحمل غرامة سكوتها وخضوعها للظالم، فتستحقّ السخرية و إزالتها من صفات الرجولة:

وَبَقيتَ وَحدَكَ بَعدَهُ رَجُلاً فَسُدْ

وَارعَ النِّساءَ وَدَبِّرِ الأَطفالا

ما كانَتِ الحَسْناءُ تَرفَعُ سِترَها

لَوْ أَنَّ في هذي الجُموعِ رِجالا

(م.ن، ص٤٨٩)

يتكلم الشاعر على لسان بنت بزرجمهر ويتّهم الشعب بأنّه إذا لم يقف أمام الظلم ولم يصمد في وجه الجبابرة وأصبح همّه الوحيد أن يعيش بأي ثمن ولو كان ثمرة ذلك هو الإذلال والخفّة، فإنّه لا تتوفّر فيه الشروط اللازمة والكفاية واللياقة لرعاية النساء وتدبير الأطفال، فانخلع بذلك من تعريفه النوعي والجنسي، ولذلك لم تر داعياً للالتزام بالحجاب في مثل هذا الجمع، الذي يبدو وكأنّه ليس فيه رجل.

وفي شعره سخريّة أيضاً من الحاكم الذي يقسى على الناس، وكيف أنّه يعمل على هواه إذا سكت عنه الناس وأفسحوا المجال له ولجرائمه. فيسخر بنيرون ويسخر بالشعب الذي يؤيده، وكأن هذا التأييد ليس مما يملي عليه الحاكم الجائر بل كأنه نابع من نفسه. ويدّعي نيرون كل يوم فنّاً جديداً ويقرّ الشعب له بهذا الفنّ دون أن يحظى بنصيب منه، فقد صوّر الشاعر قبل هذه الفقرة نيرون بصفات رديئة خَلقية وخُلقية:

أيُّ شَيءٍ كانَ نَيرونُ الّذي

عَبَدوه؟ كانَ فَظَّ الطَّبعِ غِرّا

بارِزَ الصُّدْغَينِ رَهْلاً بادِناً

لَيسَ بالأَثْلَعِ يَمشِي مُسْبَطِرّا[11]

(م.ن،ج٢، ص١٠١)

وفي هذه الفقرة يردف المحاسن التي يدّعيها نيرون ويسخر من الشعب الذي يقرّ له بهذه الصفات، ويدّعي أنّ فيه الحسن بأكمله، بل بأحسن ممّا يريده نيرون فهذا الشعب حقيق بالاستهزاء:

قال: بي حُسنٌ فَقالَت: وَبِهِ

يا فَقيدَ الشِّبهِ، فُقتَ الناسَ طُرّا

فَتَرقَّى، قالَ انّي مُطرِبٌ

فأجابَتْ: وتُعيدُ الصَّحْوَ سُكرا

فتَمادَى، قالَ: في التَّصويرِ لي

غُرَرٌ، قالَت: وتُؤتِي الرَّسمَ عُمرا

فَتَغالَى، قال: في التَّمثيلِ لا

شِبهَ لي قالَت: ويُحيِي المَيْتَ نَشْرا

فتَناهَى، قال: إنّي شاعِرٌ

فَأجابَتْ: إنّما تَنظِمُ دُرّا

(م.ن، ج٢،ص١٠٩)

وحقّاً أوصله شعبه من التخيّل والتوهّم إلى حدّ ينقل عنه أنّه عندما أجبر على الانتحار قال قبل موته آسف! فسيفقد العالم بموتي فنّاناً كبيراً.

وفي قصيدته ١٨٠٦-١٨٧٠ جاءت كلمة تحمل معناً آخر مغايراً للمعنى الأصلي، ليستفيد منها في السخرية فيما يشبه بما سمّاه الأقدمون "تأكيد الذم بما يشبه المدح"، فيعبّر عن استعداد الألمانيين لنضال الفرنسيين الذين دخلوا بلادهم:

فتَهَيّأَ الألمـــانُ لاستِقبالِـــهِ

كَالحائطِ المَرصـــوصِ بِالأجسادِ

(م.ن، ج١، ص٣٤٤)

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

وفي هذا التعبير نوع من السخرية من المعتدي.

ومثل هذا الاستخدام الساخر يجري في موضع التهديد والتنديد والاستكانة بالمستبدّين:

أَخمِدوا الأنفاسَ، هذا جُهدُكُم

وَبِهِ مَنجاتُنا منكُم فَشُكرا!

(م.ن، ج٢، ص١٤٠)

فالشكر للمستبد لا يدلّ إلا على سخرية، ولها تأثير أقوى وأشدّ من التعبير الصريح المباشر.

ب) خلق اللوحات

لمطران قدرة متميزة وفائقة في تصوير الأجزاء في قصصه التاريخية. فهو لايكتفى في قصصه الشعرية بالقصّ فقط، وإنّما يرسم للقارئ لوحات متميزة عن أحداث قصّته، فكأنّك تشاهد فلماً لهذه القصّة، فرسمه دقيق وبليغ. وإذا أخذ القلم ليرينا لوحة حول لحظة من لحظات حوادثه فهو رسّام باهر، لايفوته شيء مما يثير القارئ، ويقرّر في ذهنه ما يقصد تثبيته. وكيف يمكن للرسّام أن يرسم خلجات النفس من القلق والاضطراب ومن الهيجانات النفسية؟ فمطران لايعجز عن هذا. ففي شعره لوحات مختلفة الألوان. فمن تصوير السكون والحركة، ومن تصوير الأصوات والضوضاء وفي مقابلها السكوت الناشئ عن القلق، ومن تصوير مسرح الأحداث، ومن تصوير أحاسيس أشخاص القصة وإن لم يكونوا من أبطالها ولا من شخصياتها الأصلية.

ويمكن أن ندرس هذه التصاوير في قصيدة ١٨٠٦-١٨٧٠، لنشاهد قدرته في تصوير الحركة في رسم لوحة من حرب الألمان وفرنسا، يصوّر فيها حركة الجيش الباسل لمحاربة المعتدي فتسري حركة الجيش إلى الجبال والوادي والمهاد، فكأنّها كلّها تحرّكت بحركة الجيش كثرة وقوّة وحماسة. فالطبيعة الساكنة الهادئة الجامدة تحرّكت نتيجة هذه الحركة الباسلة وكأن الجامدات قد نُفثت فيها الروح:

مَشَتِ الجِبالُ بِهِم وَسالَ الوادي

وَمَضَوا مِهاداً سِرنَ فَوقَ مِهادِ

يُحدَى بِهِم مُتَطَوِّعينَ كَأَنَّهم

عيسٌ وَلَكِنَّ الفَناءَ الحادِي

(م.ن، ج١، ص٣٤٣)

فقائد الجيش في حركته هذه ليس قائد البهجة والانتصار، وإنّما يقوده الفناء والموت، فلا يخشى الموت في سبيل اعتلاء الوطن وإنما يخشى الحياة تحت رقّ الاحتلال.

في مثل هذا المسرح يتحرك كل الجماد، وبالعكس فزعُ المشهد يمنع النهر الجاري عن الجريان:

يَومٌ تَجِفُّ لِذِكرِهِ أَنهارُها

خَوفاً وَيَجرِي قَلبُ كُلِّ جَمادِ

(م.ن، ص ٣٤٣)

فالفزع شديد إلى درجة أنّه يتحرك الساكن ويسكن المتحرك، كأن كل شيء يخرج عن ذاته وصفاته الأصلية ويلتجئ إلى صفة مغايرة له كل التغاير ليوفر لنفسه الأمن من خلال هذا التغاير والتغيير. مثل هذا المشهد يعطي صورة بالغة في الفزع من الدهشة والخوف.

في هذه اللوحة بكلّ حركاتها الفياضة وسكونها (جري الجماد وجفاف الأنهار) يجعل الشاعر الطبيعة مشاركة لأبطال القصة، ويسري فيها الروح والحيوية فلا يبقى في المشهد شيء ليست فيه الحياة والروح، ولا يبقى فيه شيء لا يشارك بنوع من المشاركة في بثّ روح الحماسة.

والأشياء التي كانت لها حركة؛ تستخدم حركتها في هذه اللوحة لخدمة المشهد وأبطال المسرح. فالسيل يجري في غير مجراه وطلائع العقبان تنصرف عن حركتها إلى حيث يدعوها المشهد:

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

فاتوا كما يَجرِي الأَتِيُّ[١٢] مُشَعَّباً
في غير مَجرَى مائِهِ المُعتادِ
وكأَنّ نابليون في إشرافه
علَمٌ على عَلَـــمِ[١٣] الزَّعامةِ بادِ
...
وَالفَخرُ في راياتِه مُتَمَثِّلٌ
وَطَلائعُ العُقبانِ في تَردادِ
(م.ن، ص ٣٤٤)

وحتّى الموت الذي هو مظهر السكون والجمود وانعدام الحياة، يجد في شعر مطران حيويّة، ويتحرّك ليعطي اللوحة أثرها:

وَالمَوتُ في الجَيشَينِ غَيرُ مُجامِلٍ
يَجتاحُ بالأزواجِ والأفرادِ
يَطوِي الصُّفوفَ وَيترُكُ الدَّمَ إثرَهُ
فَكَأَنَّهُ فُلكٌ بِبَحرِ عِبادِ
مازالَ يَفتِكُ وَالنُّفوسُ زَواهِقُ
وَكَأَنَّ تِلك هُنَيهَةُ الميعادِ
(م.ن، ص ٣٤٤)

أمّا تصويره عن الأصوات فهو يضبط في تصويره ضوضاء وجلبة، كأنها من شدّتها وحركتها وحيويتها تملأ أذن القارئ بحيث لا يجد أمامه طريقاً للخلاص منها، فهي جزء لا ينفك من هذا الصراع العنيف فلابدّ منه:

وَنكادُ نَسمَعُ لِلقِتالِ دَوِيَّهُ
وَنَرَى الفَوارِسَ في لَقـــــاً و طِرادِ[١٤]
(م.ن، ص ٣٤٣)

فلهذا الصراخ أيضا حيويته ونشاطه في اشتعال نار الحرب، فهو يماشي الأجزاء الأخرى في اشتداد النّضال وتقويته:

وَعَلا هُتافٌ مازَجَتْهُ غَماغِمٌ
مِن سَلِّ أَسلِحَةٍ وَرَكْضِ جيادِ
وَرَنينُ آلاتٍ تَكادُ تَظُنُّها
مُتَجاوِباتِ العَزْفِ بالإيعادِ
حتَّى إذا كَمَلَ العَتـــادُ تَقاذَفوا
بالنّارِ ذاتِ البَرقِ وَالإرعادِ
(م.ن، ص ٣٤٤)

فكلّ شيء له صُراخه ودَويّه في احتماء نار الوغى سواء ممّا نعتاد أن نسمع منه صرخة كالحيوان:

وَإذا جَوادٌ خَرَّ فارسُه دَعَا
بِصَهيلِهِ ذا حاجَةٍ بِجَوادِ
(م.ن، ص ٣٤٤)

أو ممّا لايخطر على بالٍ أن يكون له صدى:

تَدعُو الجَراحَةُ أُختَها بِصُدورِهِمْ
وَالسَّيفُ يَتلُو السَّيفَ في الأَجيادِ
(م.ن، ص ٣٤٤)

فالجراحة عند مطران تسير فيها الروح لتحيى وتدعو جراحة مثلها أن تدخل صدر مقاتل شجاع مايـــزال على استعداد للقتال برغم الجراحات التي دخلت صدره.

أمّا المشهد أو مسرح الأحداث الذي يرسمه خلال اللوحات الصوتية والحركية فهو أيضاً في دقّة واستيفاء، ويستخدمه في خدمة الهول والفزع الذي يريد أن يبثه في نفس القارئ، فالحائط المرصوص من الأجساد والفوارس الذين يلقى بعضهم على الأرض، ويطرد بعضهم بعضاً والنـــار التي تتقاذف من كلّ جانب، ذات البرق والإرعاد، كل هذه التصاوير تبث الروع في نفس القارئ والتي تستدعيهـــا مثل هذه الحرب. بـــالإضافة إلى تصاويره الأخرى:

شُهُبٌ ضِخامٌ آتياتٌ و الرَّدَى
بمَسيرِهنّ وَمثلهُنَّ غَوادِ.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

تُلقَى الرّجالُ علَى الثَّرَى قَتلَى كَما
يُلقِي السَّنابِلَ مِنجَلُ الحَصّادِ
(م.ن، ص ٣٤٤)

ولتصوير خلجات النّفس وما يعتريها من لؤم الإنسان وظلمه لنفسه والأعمال التي يقوم بها، والتي يصوّرها مطران أحسن تصوير، نعود إلى قصيدته «مقتل بزرجمهر» حين يأتي الناس ليشهدوا قتل الوزير الحكيم وهم يعلمون صلاحه وحكمته وعظمة شأنه، فيحزنون ولكن لايجرأون حتى على إظهار الحزن:

مُتَألِّبينَ لِيَشهَدوا مَوتَ الّذي
أحيَا البِلادَ عَدالةً وَنَوالا
يُبدونَ بِشراً وَالنُّفوسُ كَظيمةٌ
يُخْفِلْنَ بَينَ ضُلوعِهِم إحفالا
تَجلُو أسِرَّتَهم بُروقُ مَسَرَّةٍ
وَقُلوبهم تَدمَى بِهنَّ نِصالا
و إذا سَمِعتَ صِياحَهُم وَدَوِيَّهم
لم تَدْرِهِ فَرَحاً وَلا إعوالا
(م.ن، ج١، ص٤٧٨)

النتيجة

- يربط مطران بين التاريخ والسياسة ارتباطاً وثيقاً. فهو لا يجامل في إعلان مواقفه السياسية ضد حكم الجور والظلم. وإنّما يستخدم شعره في أداء رسالته في المجتمع، وذلك في النضال ضد الظالمين والمستكبرين، فيعتقد برسالة القلم العظيمة.
- يجعل مطران من التاريخ عبرة لجيله، فلم يكن في شعره التاريخي كمؤرخ يسجّل الأحداث والوقائع بلغة الشعر، وإنما يعتبر التاريخ أمّاً للأمم ينبغي أن لا ينفصل عنها، فيجد قاسماً مشتركاً بين الأمم وهو الانتقام من الجبابرة.
- يستخدم مطران في شعره التاريخي الأسلوب القصصي لاجتذاب القارئ أولاً، ويجد طريقاً مؤثراً لإيجاد الصلة بين الأمم المختلفة باختلاف زمانها ومكانها ثانياً، فلم يتخذ مادة شعره التاريخي من أمته فحسب، بل من أمم أخرى مثل الفرس و اليونان وفرنسا وغيرها.
- يندد مطران بالأمم التي تخضع للظلم وتمهد بذلك الطريق للمستبد ليظلم أكثر وأكثر، وذلك دون توهين للشعب أو الحط من شأنه، مع أنّه يعتقد أنّ الشعب هو المسؤول الوحيد عما يفعل به الطغاة.
- يفتخر مطران بتاريخ أمته، لكنه لا يجعل مفاخر الماضين وسيلة للمباهاة والغرور، وإنما يعتبره مسنداً يسند إليه الشعب ليصنع مستقبله على أساس العدل والاستقلال.
- دور مطران الريادي في الشعر التاريخي يتجلى في الامتزاج بين الشعر التاريخي والقصصي، كما يتجسد في استخدامه للهجة الساخرة، ويظهر أيضاً في خلق لوحات تموج فيها الحيوية والحركة والصوت لتصوير الوقائع التاريخية.

الهوامش

١- الرمم: العظام البالية.
٢- أودى به: أهلكه.
٣- الكلأ: العشب.
٤- هو من أكبر فراعنة مصر، والذي شاهدت مصر فى عهده فتوحات كثيرة وعظمة خالدة.
٥- الشوس: الشجعان.
٦- مخالساً ذمة العلياء: أي خائناً لها.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

٧- كهرته: عبست في وجهه وانتهرته.
٨- العتاد: الاستعداد.
٩- غوادِ: أمطار أو سحب الغداة.
١٠- السخال: أولاد الشاة.
١١- الرهل: الانتفاخ والورم من غير داء، والبادن: السمين، والأتلع: طويل العنق، والمسبطر: المسرع.
١٢- الأتيّ: السيل.
١٣- العلم الثاني: الجبل.
١٤- اللقى: الشيء المُلقَى المطروح، و الطراد: المطاردة.

المصادر العربية

[١] القرآن الكريم
[٢] أبو شوارب، محمد مصطفى، (٢٠١٠)، خليل مطران: الكتابات النقدية، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
[٣] جحا، ميشال، (١٩٩٥)، خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
[٤] حجازي، أحمد عبد المعطي، (١٩٧٥)، خليل مطران، بيروت: دار الآداب.
[٥] درويش، أحمد، (٢٠١٠)، خليل مطران المسيرة والإبداع، الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.
[٦] الرمادي، جمال الدين، (لا تا)، خليل مطران شاعر الأقطار العربية، مصر: دار المعارف.
[٧] عطوي، فوزي، (١٩٨٩)، خليل مطران شاعر الأقطار العربية، بيروت: دار الفكر العربي.
[٨] عشقوتي، منير، (١٩٩١)، خليل مطران شاعر القطرين، بيروت: دارالمشرق.
[٩] عويضة، محمد محمد، (١٩٩٤)، خليل مطران شاعر القطرين، بيروت: دار الكتب العلمية.
[١٠] الغيث، نسيمة راشد، (٢٠١٠)، خليل مطران في مرآة النقد الأدبي، الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.
[١١] مطران، خليل، (١٩٧٧)، ديوان الخليل، بيروت: دار مارون عبود.
[١٢] المقدسي، أنيس، (١٩٧١)، اعلام الجيل الأول، بيروت.
[١٣] الموسى، خليل، (٢٠١٠)، تجربة مطران الشعرية ملامحها وآلياتها ومقوماتها، ابحاث الندوة الأدبية: الدورة الثانية عشرة «دورة خليل مطران ومحمد علي/ماك دزدار»، الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، صص١١٧-١٧٥.
[١٤] ـــــــــ، (٢٠٠٠)، قراءات في الشعر العربي الحديث والمعاصر، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

المصادر الفارسية

[١٥] اختر سيمين، حسين، (١٣٨٦ش)، نقش خليل مطران در طرح وتحول مكتب رومانتيك عربي (دور خليل مطران في طرح و تحول المدرسة الرومانسية العربية)، كرمانشاه: جامعة رازي.
[١٦] حريرچي، فيروز ومجتبى محمدى مزرعه شاهى، (١٣٨٩ ش)، مظاهر رومانتيک در اشعار خليل مطران (المظاهر الرومانسية في شعر خليل مطران)، فصليّة علوم ادبى، جامعة قم، السنة الثالثة، الخريف والشتاء.
[١٧] حسنعلي محمدي، بتول، (١٣٨٠ ش)، خليل مطران خاتم مكتب كلاسيك، فاتح مكتب رومانتيك

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

(خليل مطران: مختتم المدرسة الكلاسيكية، ومفتتح المدرسة الرومانسية)، طهران: جامعة تربيت مدرس.

[١٨] خنشا، سارا، (١٣٨٦ ش)، بررسي شعر رومانتيك خليل مطران (دراسة في شعر خليل مطران الرومانسي)، طهران: جامعة آزاد الإسلامية، طهران.

[١٩] دهقاني احمدآبادي، فاطمه، (١٣٧٨ ش)، خليل مطران واشعار داستاني_تصويري (خليل مطران و اشعاره القصصية – التصويرية) طهران: جامعة آزاد الإسلامية، طهران.

[٢٠] سليمان پور، زهرا، (١٣٧٢ ش)، خليل مطران شرح احوال وبررسي آثار وشرح تعدادي از قصائد (خليل مطران: نبذة عن حياته ودراسة أعماله الأدبية و شرح عدد من قصائده)، اصفهان: جامعة اصفهان.

[٢١] فوگل، اشپيل، (١٣٨٠ ش)، تمدن مغرب زمين (الحضارة الغربية)، ترجمه: محمد حسين آريا، طهران، نشر امير كبير.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

خلیل مطران، شعر تاریخی ومبارزه سیاسی

منصوره زرکوب[۱]، زهرا سلیمان‌پور[۲]

تاریخ دریافت: ۱۳۹۱/۳/۲۲ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۱/۷/۲۲

شعر از دیر باز تصویرگر وقایع زمان خود بوده و هست و شاعران زیادی از جمله مطران در شعر خود به ثبت وقایع تاریخی پرداخته‌اند. ما در این مقاله ضمن بررسی شعر تاریخی مطران، نظر وی را در زمینه‌ی ارتباط بین تاریخ وسیاست مورد بحث قرار داده‌ایم. این مقاله به موضع‌گیری مطران در برابر ستمگران تاریخ می‌پردازد و نقش مطران را در رهبری جنبش نوآوری در قصائد تاریخی وی تبیین می‌کند و سبک شعری را که برای بیان نگاهش از آن استفاده کرده بررسی می کند. نتیجه‌ی تحقیق نشان می دهد که شاعر به شعر تاریخی به عنوان ابزاری برای ثبت حوادث تاریخی نگاه نمی کند بلکه از آن برای تقدیس آزادی و مقابله با ظلم واستبداد استفاده می کند. او ملت‌هایی را که با خضوع و تسلیم در برابر ستمکاران، حاکمان ظالم را ساخته وپرورش داده اند محکوم می نماید و در مقابل ملت هایی را که در برابر ظلم و ستم ایستادگی کرده و در این راه به دعا و امید واهی بسنده نکرده اند مورد تمجید قرار می‌دهد. او نه تنها موضوع شعر تاریخی خود را از تاریخ مصر – گذشته وحال آن – می‌گیرد بلکه به تاریخ ملت‌های دیگر مانند ایران و روم توجه دارد، چه او معتقد به وجود رابطه ای مستحکم میان ملت هاست و این رابطه همانا انتقام از ستمگران است. مطران در شعر تاریخی خود از جنبه دیگری نیز پیشتازی خود را در نو آوری در شعر به اثبات می‌رساند. او از سبک داستانی استفاده می کند تا ضمن جذب مخاطب – در هر زمان ومکان– از تأثیر گذاری کافی برخوردار باشد. شیوه های بیانی دیگری مانند ریشخند را نیز در کلام خود به کار برده، از تصویرگری در القای پیامش غافل نیست.

کلمات کلیدی: خلیل مطران، شعر، تاریخ، سیاست، نوآوری

۱. دانشیار گروه عربی دانشگاه اصفهان، zarkoobm@yahoo.com

۲. دانشجوی دکترای گروه عربی دانشگاه اصفهان، soleymanpoor@ yahoo.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]

Khalil Mutran, Historical Poems and Political Struggle

Mansureh Zarkob[1], Zehra Suleimanpour[2]

Received: 2012/6/11 Accepted: 2012/10/13

Abstract

From the time immemorial, poetry has been the manifestation of events of its own time and a large number of poets including Mutran have emphasized on historical events in their poems. The current study, besides surveying Mutran's historical poetry, will discuss his outlooks about the relationship between history and politics. As such, it reviews Mutran's stance against tyrants of history and explains his role in Innovation Movement in his historical poems and the poetic style he used to express his viewpoints. This research shows that the poet didn't use the historical poem as a tool to record historical events but applied it for sanctifying the freedom and coping with the tyranny, thus he condemns nations who bow to tyrants with humility and submission and praises those who stand firmly against oppression and in this way didn't suffice pray and false hope. Mutran is inspired by not only the past and the present history of Egypt rather he also pays attention to history of other nations such as Persia and Rome; because he believes in close relationships among nations and this relationship is like revenge from oppressors. Mutran in his historical poems includes his innovation aspects i.e. narrative style to attract audiences of any time and at any place. He employed other expressive techniques such as sarcasm in his language. He is also not unaware to use illustrations in his language.

Keywords: Khalil Mutran, Poetry, History, Politics, Renewal

1. Associate Professor, Department of Arabic, University of Isfahan, zarkoobm@yahoo.com
2. Ph. D. Student, Department of Arabic, University of Isfahan, soleymanpoor@ yahoo.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-24]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.19.4.4.3]